

المشهد الثقافى فى مدن الساحل الفلسطينى

خلال فترة الانتداب البريطانى:

من التكوين إلى الامتدادات العربية وصولاً إلى الصراع السياسى

• مدخل:

عاشت فلسطين فى السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية ظروفًا متقلبة أسوة¹ بسائر المناطق والبلاد التى كانت واقعة تحت حكم هذه الدولة والذى استمر لقرابة أربعة قرون ونيف (1516 - 1918). لكن فى خضم هذه التقلبات حظى المشهد الثقافى ببعض العلامات الفارقة، وفى مقدمتها بدء ظهور جمعيات أهلية وصحف عربية ونشاط ملحوظ لولادة الحركة القومية العربية، وحراك ثقافى² يمكن الإشارة إلى كونه محدودًا فى حيزات جغرافية (المدن مثلاً)، وفى حيزات ثقافية (نخب قليلة ممن كسب معرفة وثقافة أوروبية فى الأساس). وكان العام 1908 هو المفترق الرئيس فى ظهور هذه المشهدية جراء ثورة تركيا الفتاة وإعلان جمعية الاتحاد والترقى³ عن نيتها تبني أسس الحرية والمساواة فى الدولة. لكن بعد فترة زمنية وجيزة انقلبت هذه الجمعية على مبادئها وشدت قبضتها على الدولة ومواطنيها العرب بوجه خاص.

التحول الرئيس فى بنية المشهد الثقافى كان فى اعقاب وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطانى الذى استمر قرابة ثلاثة عقود زمنية (1918 - 1948). وبالرغم من

¹ عادل مناع. تاريخ فلسطين فى اواخر العهد العثمانى 1700-1918 (قراءة جديدة). مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1999. خصوصاً الفصلين الثامن والتاسع من هذا الكتاب.

² البرت حورانى. الفكر العربى فى عصر النهضة 1798-1939. ترجمة: كريم عزقول. دار نوفل، بيروت، 1997.

³ زين نور الدين زين. نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية. بيروت، 1968. خصوصاً الفصل الرابع من الكتاب.

تسمية هذا الحكم بـ "انتداب"4 إلا أنه كان بعيون سكان البلاد احتلالاً واستعماراً بكل ما كانت تعنيه الكلمة في ذلك الزمن. ولكن بالرغم من هذا الوضع والتعريف إلا أن حكومة الانتداب البريطاني أتاحت فُسحاً من حرية التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للسكان في فلسطين. حيث انتظم هؤلاء في حركات سياسية كالأحزاب ذات التوجهات المختلفة، وأيضاً توفرت مؤسسات أخرى للعمل على تعزيز المشهد الثقافي في الأساس وهو موضوع محاضرتنا لهذا اليوم.

إن اليقظة / النهضة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها فلسطين لم تكن بفضل سياسات حكومة الانتداب، إنما بقدره المجتمع الفلسطيني الاعتماد على ذاته وتطوير قدراته في كافة الميادين. فحكومة الانتداب البريطاني لم يكن همها إلا في الحفاظ على هدوء واستقرار في فلسطين لتتفرغ لإدارة مستعمرتها ومعالجة قضايا سياسية وعسكرية أخرى.

• تشكل المشهد الثقافي الفلسطيني خلال فترة الانتداب:

وبناء على ما تطرقنا إليه بايجاز في المدخل فقد اتجه المشهد الثقافي الفلسطيني في مسارين:

الأول وهو داخلي أي خاص بالفلسطينيين الذين أطلقوا مبادرات ثقافية متميزة مثل الصحافة، المسارح، المدارس، الأندية الثقافية والأدبية والرياضية، فرق الكشاف، صالات السينما، الأحزاب ودورها التثقيفي، الخ...

الثاني وهو خارجي أي عام متمثلاً بعنصرين / مركبين وهما: حكومة الانتداب وسياساتها، والحركة الصهيونية وسعيها إلى تطبيق مشروعها بإقامة وطن قومي(دولة) لليهود في فلسطين بناء على توجيهات وتوصيات وقرارات مؤتمرات صهيونية انعقدت تباعاً منذ المؤتمر الأول في بازل في سويسرا في عام 1897 وصولاً إلى تصريح بلفور (1917)⁵ الصادر عن حكومة بريطانيا والداعم لتطلعات اليهود بهذا الشأن. أما تطبيقياً فإن سعي الحركة الصهيونية عبر مؤسساتها وفي مقدمتها القيرن قبيمت بشراء مساحات من الأراضي وإقامة مستعمرات عليها لتوطين آلاف المهاجرين اليهود تمهيداً للسيطرة على فلسطين سياسياً وعسكرياً وتحقيق مشروع إقامة الدولة.

⁴ لفهم ظهور وتطور استعمال هذا المصطلح يراجع: The Summary of the work of the League of Nations, January 1920 – March 1922, League of Nations Union, 1922, page 4
⁵ عبد الفتاح العويسي. جذور القضية الفلسطينية 1799-1922. الطبعة الثانية، الخليل، 1992. الفصل الثامن من الكتاب.

• تجليات المشهد الثقافي:

لا شك في أن المسارين ساهما كل في ميدانه بإثراء المشهد الثقافي.

فالمسار الأول⁶ والمعتمد على المبادرات الفلسطينية الخاصة بإقامة مؤسسات أو هيئات ثقافية أو ذات توجهات ثقافية دفع بعدد من المثقفين إلى تولي هذه المبادرات.⁷ ففي يافا تم تأسيس جريدة "فلسطين"⁸ على يد صاحبها ومحررها عيسى العيسى،⁹ ثم مجلة "الأصمعي" لصاحبها حنا العيسى، فجريدة "الجامعة الإسلامية" لصاحبها سليمان التاجي الفاروقي ثم جريدة "الصراط المستقيم" للقليلي، وجريدة "الدفاع" للشنطي وغيرها... كذلك الأمر في حيفا تأسست جريدة "الكرمل" لصاحبها ومحررها نجيب نصار،¹⁰ والتي قارعت المشروع الصهيوني بعد ان بانث لنصار حقيقة هذا المشروع. وأيضاً أسس جميل البحري مجلة "الزهرة" ومن ثم "الزهور"¹¹ ذات التوجه الأدبي لكونه ساهم في إثراء المشهد الثقافي بمسرحيات مترجمة عن الأدب الفرنسي لأن ثقافته مؤسسة على اللغة والأدب الفرنسيين. وجريدة "النفير"¹² لصاحبها ايليا زكا¹³ الذي أظهر ميولاً مؤيدة للصهيونية لدرجة مبادرته إلى إصدار نسخة بالعبرية أطلق عليها اسم "هشوفار". ولا شك في أنه نال دعماً مالياً من جهات صهيونية لتحقيق هذا الغرض.

لا شك في أن الصحافة لعبت دوراً بارزاً في توعية القراء (بالرغم من أن نسبتهم ضئيلة مقارنة مع النسبة في المجتمع اليهودي المهاجر)، ومن ثم رسمت توجهات سياسية لعدد من الشخصيات السياسية والأحزاب. وكان لها، أي الصحافة دوراً بارزاً في الصراع السياسي بين الحركة القومية العربية – الفلسطينية والحركة القومية الصهيونية.

مقابل ذلك فإن المدارس التبشيرية لم تبق الوحيدة ذات القدرة على توجيه الثقافة المتأثرة بفكر أوروبي،¹⁴ إنما انطلقت مبادرات فلسطينية إلى تأسيس مدارس خاصة كـ "مدرسة دار العلوم الإسلامية" و"مدرسة النهضة" و"مدرسة الرابطة الإسلامية" و"مدرسة الروضة" وغيرها في يافا، ومدرسة "الجمعية الإسلامية" و"السباعي"

⁶ حول التطور الثقافي في فلسطين يمكن مراجعة كتاب عبد الرحمن ياغي. حياة الأدب الفلسطيني الحديث من اول النهضة... حتى النكبة. الطبعة الثانية عن وزارة الثقافة الفلسطينية برام الله، 2001.

⁷ كامل السوافيري. الأدب العربي المعاصر في فلسطين 1860-1960. دار المعارف بمصر، القاهرة، 1975. ص ص 66-72.

⁸ يعقوب يهوشع. تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني (1918-1908). مطبعة المعارف بالقدس، 1974. وأيضاً الجزان الثاني والثالث لنفس المؤلف. يعالج يهوشع ظهور ونمو ومواقف الصحافة العربية في الفترتين العثمانية والانتدابية.

⁹ Rashid Khalidi. Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness. Columbia University Press, New York, 1997. P. 126.

¹⁰ Khalidi. P. 124.

¹¹ ياغي. م.س. ص 83.

¹² Khalidi. P. 137.

¹³ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام. المجلد الرابع، ص 490.

¹⁴ Ami Ayalon. Reading Palestine: Printing and Literacy, 1900-1948. University of Texax Press, Austin, 2004. Pp. 16-42.

و"ثابت" و "الوداد" وغيرها في حيفا...¹⁵ هذه المدارس تمتعت باستقلالية معينة في إدارتها وتوجهاتها السياسية والاجتماعية ولعبت دورًا بارزًا في توسيع مساحة الحيز الثقافي ليكون خارج أطر المدارس التبشيرية أو الأجنبية وتلك الخاضعة للحكومة. في هذه المبادرات ظهرت عوامل التشديد على الثقافة العربية والإسلامية، وتوجهات نحو الحفاظ على المورث الحضاري المتراكم عبر الأجيال.¹⁶

إن ظهور الصحف¹⁷ وزيادة عدد المدارس فرض واقعا تطلب توفر مطابع، للقيام بمهام طباعية وبالتالي مع انتشار ظاهرة المطابع¹⁸ ازداد استهلاك السكان للمواد القرائية ليس فقط الصحف، بل كتب ومنشورات دعائية وتوجيهية لشركات ومؤسسات في القطاع الخاص، ومؤسسات وهيئات في القطاع العام، بما فيها الحكومي. وبلغ عدد مطابع يافا في فترة الانتداب أكثر من أربعين مطبعة.¹⁹ وفي حيفا زهاء العشرين مطبعة.²⁰

انتشار المطابع التجارية²¹ بهذا الشكل فيه دلالة على الاحتياج لمواد مطبوعة، وبالتالي إلى انتشار ظاهرة تأليف الكتب على أنواعها التعليمية والمطالعة. ولا يسعنا هنا إلا إلى الإشارة إلى الدور الثقافي الهام الذي لعبته المطابع في نشر المواد التنقيفية على أنواعها واستجابة لأذواق الجمهور المستهلك.

ونتيجة لهذه الظاهرة المحلية المطابع، الصحف والمدارس وبالتالي ارتفاع نسب القراء، تأسست مكاتب لبيع الكتب في يافا وحيفا بأعداد كبيرة ومن أبرزها المكتبة العصرية بفرعها في يافا وحيفا، ومكتبة الطاهر بيافا والمكتبة الوطنية للبحري في حيفا.²²

• ¹⁵ عن حركة التعليم في المدن والقرى الفلسطينية في عهد الانتداب يراجع المقال المنشور على الرابط التالي: <http://www.wafainfo.ps/atemplate.aspx?id=2822>. والدراسة الهامة حول هذا الموضوع نجدها في

كتاب: Abdul Latif Tibawi. *Arab Education In Mandatory Palestine*, Luzac, 1956

¹⁶ جوني منصور. المدينة الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني؛ تطورات وتحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية. دار الرعاة، رام الله، 2009. ص ص . 28-35. حنا عيسى ملك. الجذور اليافية؛ عرض شامل لتاريخ يافا القديم والحديث. إصدار المؤلف، القدس، 1996. ص ص 64-72.

¹⁷ عبد القادر ياسين. "الصحافة العربية في فلسطين"، في الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، ص ص 427 – 480. Ayalon. Pp. 60-65.

¹⁸ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام. المجلد الثالث، ص 94.

¹⁹ علي حسن البواب. موسوعة يافا الجميلة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2009.

²⁰ علي حسن البواب. موسوعة حيفا الكرملية. إصدار المؤلف، عمان، 2011.

²¹ Ayalon. P. 57 – 59.

²² ياغي. م.س. ص 77.

ونشطت حركة ترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية في فترة الانتداب، وإن كانت محدودة، إلا أنها كانت في مسار متزايد سنة بعد سنة. وهذه الحركة أثرت الفكر الفلسطيني وعززته.²³

وعلى صعيد الفنون المختلفة كالمسرح يمكننا الإشارة إلى مبادرات فلسطينية لتأسيس مسرح وطني، وأهمها مبادرة إسكندر أيوب بدران المولود في بيروت،²⁴ والذي انتقل مع والدته للعيش والعمل في حيفا في نهايات الفترة العثمانية، دأب على رعاية فن التمثيل من خلال تأسيسه لفرقة الكرمل الحيفاوية والتي قدمت عروضاً مسرحية مستقلة بها امام جمهور واسع من حيفا وخارجها، وأيضاً المشاركة الفعلية في لعب أدوار في مسرحيات قدمتها فرق عربية وافدة إلى حيفا ويافا مثل فرقة رمسيس لعميد المسرح العربي يوسف وهبي. فكانت فرقته كفرق أخرى من مصر وسوريا ولبنان، تقدم عروضاً مسرحية في يافا والقدس وحيفا. وإلى جانب المسرح قدّم فنانون عروضهم الغنائية في المدينتين أمام جمهور واسع متشوق لسماعهم.²⁵ فغنت أم كلثوم مرتين،²⁶ وفريد الأطرش ست مرات بمرافقة شقيقته اسمهان، على مسرح سينما الحمرا في يافا ومسرح سينما عين دور في حيفا. كذلك عرضت الأفلام العربية وخصوصاً المصرية في صالات عرض السينما في المدينتين واستقطبت جمهوراً واسعاً مستهلكاً للثقافة بجزارة. وبرز محلياً عدد من المطربين مثل نمر ناصر في يافا الذي كانت له أسطوانة تحوي أغانيه وعز الدين القمبرجي المنولوجيست، ودرويش اللبابيدي، ورجب الأكلح أشهر مطربي يافا وروزا أبو حلاوة التي كانت تقرأ القرآن، وتردد الأغاني الشائعة في حينه.. وكذلك ظهر حليم الرومي وغرام شيبا ونوح إبراهيم وسليم الحلو في حيفا.²⁷ والأخير أسس المعهد الوطني للموسيقى في حيفا في 1934، ثم توجه إلى بيروت مع اندلاع الثورة الفلسطينية ليؤسس معهداً مماثلاً لا يزال يحمل الاسم ذاته إلى يومنا هذا. ولا يفوتنا هنا ان نذكر أن تأسيس إذاعة الشرق الأدنى في يافا، وكذلك إذاعة هنا القدس،²⁸ كان لهما دوراً بارزاً في تنشيط الحركة الفنية الموسيقية على وجه الخصوص، حيث حضر عدد كبير من الفنانين العرب من مصر وغيرها لتسجيل أغانيهم وتقديم عروضهم في يافا وحيفا وغيرهما.

²³ حسام الخطيب. "حركة الترجمة الفلسطينية في القرن العشرين حتى عام 1985"، في الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، ص 253 – 341.

²⁴ جوني منصور. حيفا؛ الكلمة التي صارت مدينة. إصدار المؤلف، حيفا، 2015. ص 496. وأيضاً واصف كمال أبو الشهاب. "القصة والرواية والمسرحية في فلسطين (1900-1948)" في الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، ص 127-163.

²⁵ الياس وسليم سحاب. "الموسيقى والغناء في فلسطين"، في الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، ص 713-780.

²⁶ زيو ربيو. "الهيستوريا سبب هوفעות اوم كولتوم بت"أ يوفو"، بآتار mynet متآريخ 02.06.2014. آيل شغيا بي'آوي. "هآم 40 شنه آحري موته اوم كولتوم عديين مشفيعه عل התרבות؟"، בתוך עיתון הארץ، 31.01.2015.

²⁷ أنظر موسوعي علي البواب المشار إليهما آنفاً.

²⁸ نصري الجوزي المقدسي. تاريخ الإذاعة الفلسطينية (هنا القدس) 1936-1948. الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2010.

أما من لم يكن بإمكانه الاستفادة من هذا العرض الهائل للمواضيع الثقافية لسبب مالي، كان يلجأ إلى استهلاك ثقافي شعبي المعتمد على الحكواتي الذي يدور ويجول في حارات المدينة، وكذلك كان حظ النساء في المشاركة الخارجية (خارج أطار البيت) قليل، فأقمن ما يعرف باسم "الاستقبالات" مرة في الشهر أو الأسبوع، وهذه انتشرت في المدينتين بشكل خاص في فترة الانتداب ووفرت شكلاً من أشكال المشهد الثقافي.²⁹

واعتبرت الرياضة³⁰ والحركة الكشفية مجالات تثقيفية لشرائح واسعة من المجتمع من خلال تقديم عروض رياضية في كرة القدم والسلة والملاكمة والتنيس... واستقطبت هذه جمهور مشاهدين ومؤيدين كبير. وجرت معظم المباريات والألعاب في مدينتي يافا وحيفا، وإن كان قليل منها في القدس وعكا وغيرها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جمهور المشاركين والمشجعين لم يقتصر على سكان المدينتين إنما تعدّاه ليصل إلى القرى المحيطة بهما.

• المؤثرات المحيطة:

أما في المسار الخارجي والعام لبناء المشهد الثقافي في المدينتين فإن وجود جاليات أجنبية منذ فترات بعيدة فيهما كان له أثر ما على التعايش مع هذا المشهد. فالجاليات التي سكنت مدن الساحل الفلسطيني اليونانية والإيطالية والروسية والألمانية والفرنسية ساهمت عبر مؤسساتها واختلاط أبنائها في نقل مفاهيم ومؤثرات ثقافية سواء في المظهر الخارجي للناس كالملابس، أو المظهر السلوكي الاجتماعي كالسباحة في مسابح عصرية، أو مشاهدة عروض موسيقية غربية أو قراءة أدبيات بلغات أخرى غير العربية، وغيرها...³¹

وبموازاة هذا الجانب كان لانتشار المستعمرات اليهودية في الساحل وجواره، وبالأخص الأحياء اليهودية في حيفا³² ومدينة تل أبيب³³ الناشئة أثراً غير مباشر، على تكوين وتطور المشهد الثقافي. فبالرغم من أن مساحات الاختلاط بين الجمهورين العربي واليهودي كانت قليلة إلا أن نخباً من المجتمع العربي الفلسطيني في يافا وحيفا ذات ثقافة غربية سائدة ومتغلغلة داخلها استفادت من بعض ما كان يُقدّم من مواد ثقافية مستهلكة كالعروض المسرحية الأجنبية التي قدمت في تل أبيب وحيفا، وكونسرات موسيقية وغيرها... فلا شك لدينا أن هذه المشهدية، وإن بقيت

²⁹ عبد اللطيف كنفاني. 15 - شارع البرج - حيفا. بيسان للنشر. بيروت، 1996.

³⁰ عصام الخالدي، مئة عام على كرة القدم في فلسطين. دار الشروق، رام الله، 2013.

³¹ الكس كرم. تاريخ حيفا في عهد الاتراك العثمانيين. ترجمة تيسير الياس. إصدار شركة الدراسات العلمية في جامعة حيفا، 1979.

³² ألي شيلر(عورج). حيفا وأثرها. هוצات أريال، يروشليم، 1985.

³³ جيدون بيגר وألي شيلر(عورכים). تل - أبيب وأثرها. يروشليم، 1987.

محدودة، إلا أنها كانت نافذةً أطلَّ من خلالها أبناء المجتمع الفلسطيني على المشهد الثقافي اليهودي المستقل أيضاً.

• مساهمة التعددية الثقافية في تشكيل المشهد الثقافي الفلسطيني:

إن تعرُّض المجتمع الفلسطيني بعد الحرب العالمية الأولى إلى تعددية ثقافية H تاحت له فرصاً واسعة لتشكيل ثقافة متميزة من حيث كونها تحمل موروثاً تاريخي وحضاري ثري على قاعدة التراكم، ومن جهة أخرى مواجهته المباشرة لمكونات ثقافية غريبة عن ثقافته، وبالأخص أوروبية، أي غربية سواء عن طريق الجاليات الأجنبية التي عاشت في المدن الساحلية على وجه الخصوص، H و من خلال الاحتكاك اليومي مع نظام سياسي أوروبي متمثلاً بحكومة الانتداب. وأيضاً من خلال احتكاك وتماس يومي مع المجتمع الاستيطاني اليهودي الوافد من الغرب بوجه خاص وله مكوناته ومميزاته الخاصة المبنية على تحقيق رزمة من الأهداف الاستعمارية في أساسها الاستيلاء على أراض، وبسط هيمنة ونفوذ على مجموعة من الوظائف المفتاح التي تتيح الفرصة لتحقيق ميداني وواقعي فعلي للمشروع الاستيطاني الصهيوني.

أضف إلى كل هذا ما يتناوله الفلسطيني من شحنات ثقافية عبر وسائله المتاحة كالمدرسة والجريدة والمسرح والسينما كونت شخصيته الثقافية المؤسسة على مزيد من الانفتاح، على مزيد من التطلعات نحو تبني مفاتيح تغيير في الأنماط التفكيرية³⁴ والسلوكية، وتبني منهجية تعاطي مختلفة مع واقع جديد أفرزته الحرب العالمية الأولى وأساسها تغيير نظام الحكم.

هنا، نستطيع القول وبتأكيد كبير أن مكونات حضارية غربية تركت أثرها عميقاً في أوساط النخب المثقفة، التي سرعان ما تأقلمت وتفاعلت مع هذه التغييرات التي أحدثت نقلة نوعية للمجتمع المدني تاركة ورائها الريف في مسافة بعيدة من التعاطي مع الشأن الثقافي. ففي حين كانت في الفترة العثمانية قريبي بين المشهدية الحياتية في القرية وبعض أجزاء (أحياء) المدينة، أصبحت هناك فجوة أخذت بالاتساع بين المدينة والقرية في فترة الانتداب البريطاني.

لهذا، يمكننا فهم التحولات من كونها عامل مساعد على بلورة مشهد ثقافي جديد في مجتمع المدينة، مؤسس على حراك – ديناميكية غير متوقف، يثري ذاته باستمرار،

³⁴ Ayalon. Pp. 69-78.

مع فرص بدت غير متناهية لإمكانية استهلاك ثقافي وارد أو مستورد من أوروبا ومن المجتمع الاستيطاني اليهودي القريب.

هذه التوليفة الثقافية لعبت دورًا مركزيًا في تطوير وتنمية قدرات مستقبلية لتحقيق المزيد من الانتاج الثقافي تجلّى في سلسلة من الانتاجات: السينمائية والغنائية والمسرحية والأدبية وسواها.

لهذا، لم يكن المجتمع الفلسطيني بمعزلٍ عن التأثير بثقافات إقليمية وغربية... صحيح أنّ فلسطين كانت جسر عبور لشعوب وجيوش وحكام، إلا أنّها كانت دائماً تتأثر بما تستهلكه، وتذوّت في داخلها تراكمية ثقافية، دون أن تفقد هويتها الشخصية. وهذا هو امر الفترة التي نتحدث عنها في دراستنا هذه، حيث دخل المجتمع الفلسطيني فترة الانتداب مزودًا بطاقة ثقافية اعتبرها البعض أنها بدائية، والأمر غير متعلق بالمجتمع ذاته إنما لظروف الزمن وما جرى فيه في ظل الحكم العثماني... وترافقت هذه الطاقة مع هذا المجتمع ليتزود بالجديد مما أتيح له التزود به، دون ان يترك موروته لصالح الجديد... فكنت تجد مثقفًا يجيد العربية ويجيد الإنجليزية بنفس المستوى في غالب الأحوال..³⁵

• الصراع السياسي وأثره على المشهد الثقافي:

قلنا أعلاه، إنّ نمو وتطور المشهد الثقافي في المدينة الفلسطينية الساحلية خصوصًا، لم يكن بمنأى عمّا كان يجري في الشأن السياسي، والاشارة هنا إلى الصراع الصهيوني - العربي الذي تأجج خلال فترة الانتداب البريطاني بفعل سياسات الحركة الصهيونية الساعية إلى تحقيق المشروع الصهيوني وهو إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، وسياسات الحكومة البريطانية في لندن والانتدابية في فلسطين الداعمة والمناصرة لهذا المشروع. وتأثرت كافة مكونات الحياة الفلسطينية بهذا الوضع الذي ساهم في بلورة مشهد ثقافي مقاوم ومناهض للمشروع من خلال محاضرات ومقالات صحافية ومؤلفات (وإن كان عددها أقل) تُعزز العلاقة التاريخية بين الفلسطيني وماضيه وارضه.³⁶ ومما لا شك فيه أن هذا الصراع قد حرك المشهد كله ليكون في مواجهته.³⁷ فالسياسة لها دور في الدفاع عن فلسطين وشعب فلسطين، والاقتصاد اضطر لأن يكون اقتصادًا تنافسيًا مع الاقتصاد

³⁵ Khalidi. P. 147.

³⁶ سميح شبيب. الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين (1920-1948). وزارة الثقافة الفلسطينية برام الله، 1999. ص ص 109-114.

³⁷ Adnan Abu - Ghazaleh. "Arab Cultural Nationalism in Palestine During the British Mandate", in Journal of Palestine Studies, Vol.1, No. 3 (Spring, 1972), pp. 37-63.

الصهيوني المؤسس جيداً... وأحياناً كثيرة لم يتمكن الاقتصاد الفلسطيني من الصمود أمام قوة وقدرة الاقتصاد الصهيوني في السوق.³⁸

إن الصراع السياسي ألقى بظلاله على مشهد الحياة اليومي، فبادرت الصحف إلى مناقشة الصراع، وفقاً لتوجهات سياسية مستقلة أو متأثرة بانتمائها وتعاطفها مع تيار سياسي وحزبي معين..³⁹ ومما لا شك فيه أن الحالة السياسية الطارئة استنفذت طاقات كبيرة وهائلة. ونهاية الصراع في مرحلته الأولى كان في العام 1948، حيث تمّ تدمير المدينة⁴⁰ الفلسطينية في حرب 1948 وحلّت نكبة على الشعب الفلسطيني عامة.

● تدمير المدينة الفلسطينية وإبادة المشهد الثقافي فيها:

خطة إبادة المدينة الفلسطينية⁴¹ على يد منظمات عسكرية صهيونية كان من بين تداعياتها تدمير المشهد الثقافي في يافا وحيفا وغيرها من المدن الفلسطينية. فتوقفت الحياة الثقافية لفترة طويلة، ولم تنجح إلى يومنا هذا في استعادة نفسها.

فالحرب لم تكن فقط عسكرية، بل سياسية واقتصادية وثقافية. فبخصوص المشهد الثقافي فقد توقف كلية في يافا وحيفا. أغلقت الصحف، بعض منها انتقل ليعيش فترة ما في ظل حكومة الأردن، وأغلقت المطابع وتم الاستيلاء على بعض منها على يد هذه المنظمات. وأغلقت مدارس كثيرة لعدم تمكنها من الاستمرار بدون طلابها، وهُجّر عدد كبير جداً من المثقفين من أدباء وشعراء وموظفين الذين شكلوا الطبقة المثقفة داخل مجتمع المدينة الفلسطينية. بمعنى آخر، فقد تمّ تدمير الحياة الثقافية كما تمّ تدمير العمران والمؤسسات وتحويل أبناء المدينتين برمتهم إلى لاجئين، صار مهمهم كيفية توفير لقمة العيش وصراع البقاء والتخطيط للعودة...

لقد حقق المشروع الصهيوني عدة إنجازات بانتصاره على العرب وطرده الفلسطينيين من فلسطين. فتمّ تدمير الاقتصاد الفلسطيني الذي كان عماداً للحياة الاجتماعية والثقافية. وتمّ تدمير البنى الثقافية بكاملها تقريباً، لدرجة أنه تمّ سرقة

³⁸ الياس شوفاني. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة 1949). مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1998. ص 309-407.

³⁹ بيان نويهض الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1981. الفصل التاسع من الكتاب.

⁴⁰ احتلت المنظمات العسكرية اليهودية ثم الجيش الإسرائيلي المدن الفلسطينية التالية: صفد، حيفا، يافا، طبريا، عكا، الرملة واللد في الفترة الواقعة بين نيسان وتموز 1948، وتم ترحيل معظم سكانها العرب الفلسطينيين عنها، ولم يبق منهم إلا قلة.

⁴¹ مؤرخون كثر تطرقوا إلى النكبة من جوانب عدة، بما فيها تداعياتها على المشهد الثقافي الذي توقف كلياً، ومنهم: Ilan Pappé. 2006. The Ethnic Cleansing of Palestine, London and New York: Oneworld, 2006. وأيضا: Beni Moris. The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949, Cambridge University Press, 1988

آلاف الكتب ووضعها في أقبية الجامعة العبرية بالقدس، والمكتبة الوطنية الاسرائيلية⁴²...

وبالتالي احتاجت المدينة الفلسطينية إلى فترة زمنية طويلة لتعود إلى ما كانت عليه، أو بالأحرى إلى محاولتها إلى العودة إلى جزء مما كانت عليه وهي فاقدة لكل شيء، وواقعة تحت حكم عسكري لمدة عشرين عامًا، ومنقطعة عن تواصلها بامتدادها العربي المحيط القريب والبعيد.

وهناك محاولات جادة لاستعادة الحركة الثقافية الفلسطينية في المدن من خلال توثيق الماضي وتجميع الصور والوثائق والمستندات وبالتالي إلى تدوين نصوص تاريخية تشكل الرواية الفلسطينية لما حصل وما آلت إليه الأحوال.

خاتمة:

يمكنني القول إن فقدان المدينة الفلسطينية في العام 1948 ألقى بظلاله عميقًا على مسيرة الحركة الثقافية⁴³ منذ فقدان وإلى يومنا، إذ وجد الفلسطيني الباقي في مدينته والوافد إليها، وجد نفسه في مواجهة مشهد ثقافي يعمل على تهجينه من خلال اسرته وإبعاده عن كل ما هو ثقافة فلسطينية. فكل المحاولات والمبادرات التي نراها في أيامنا في يافا وحيفا وعكا ما هي إلا أبعث يقظة تعمل على إعادة البناء بعد سبعة عقود بعد سبعة عقود من وقوع النكبة في 1948.

*جوني منصور: مؤرخ، ومحاضر في قسم التاريخ في الكلية الأكاديمية بيت بيرل. له اهتمام بدراسة تاريخ وتطور المدن الفلسطينية. صدرت له مجموعة دراسات تاريخية، من أبرزها: "حيفا، الكلمة التي صارت مدينة"، "شوارع حيفا العربية"، "مسافة بين دولتين"، "الخط الحديدي الحجازي"، "معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والاسرائيلية"، وغيرها...

⁴² גיש עמית. אקס ליבריס. היסטוריה של גזל, שימור וניכוס בספריה הלאומית בירושלים. הוצאת מכון ון ליר בירושלים והקיבוץ המאוחד. 2014.

⁴³ Ayalon. P. 160

